استمرارية مقاومة الشـــيخ بوعمامة

مـــن المغرب الأقصى

الدكتور عبد القادر خليفي

جامعة وهران

الوحدة المغـــاربية

تمثل بلاد المغرب العربي وحدة جغرافية وبشرية مشتركة على مدى العصور, فالظروف الطبيعية, من مكونات الأرض السطحية والباطنية, واحدة. والمناخ على مدار السنة متشابه في كل جهاتها, والإنسان بعاداته وتقاليده ومعتقداته وحتى في بنيته الفيسيولوجية واحدة, والتاريخ القديم والحديث والمعاصر مشترك. لذلك لم يُقِم أسلافنا وزنا للحدود المعاصرة المصطنعة, رغم أن الاستعمار الفرنسي- مثلا- كان يفرق بين الجزائري والمغربي والتونسي. فكان الواحد من هؤلاء يعيش في هذا البلد أو ذاك دون حرج ودون أن يحس بالغربة والوحشة.

وكانت القبائل الحدودية تعيش مندمجة متحابة, تختلط أراضي تجوال قبائلها البدوية وتتلامس أراضي فلاحيها هنا وهناك. بل إن الفرد الجزائري قد يمتلك حقلا من نخيل التمر في بلدة فكيك في الجنوب الشرقي المغربي, كما قد يمتلك أحد الفكيكيين أرضا فلاحية في بني ونيف أو في مغرار بالجنوب الغربي الجزائري أو في غيرهما.

هكذا عاش سكان شمال إفريقيا جنبا إلى جنب, واشتركوا في الآلام والآمال فذاقوا ويلات الاستعمار قديما وحديثا, كما عاشوا مراحل قوة وازدهار في مراحل تاريخية أخرى. لم تكن بلاد المغرب الأقصى, إذن, غريبة عن الشيخ بوعمامة, زعيم مقاومة 1881 في الجزائر , لاتصال أراضي أولاد سيد الشيخ ببعضها في البلاد الجزائرية والمغربية معا, ولاشتمال أراضي تجوال بدوييها على أراض جزائرية ومغربية على السواء. فقد كانت البلاد الممتدة من مدينة ورقلة شرقا إلى مدينة فكيك غربا هي أراض تقع تحت سلطة أولاد سيد الشيخ "المرابطين, حتى مجيء الفرنسيين سنة 1830. فكان الاستقرار هنا أو هناك سيان, ولذلك كان يتواجد عدد هام من قبائل أولاد سيد الشيخ في المغرب الأقصى, رغم أن بلدتهم الأصلية هي الأبيض سيد الشيخ في الجنوب الغربي الجزائري, كما أن انتساب الشيخ بوعمامة إلى هذه القبيلة "المْرابْطية" المحترمة, سهل له التنقل والإقامة في جهات عديدة دون أية عراقيل.

لقد كانت البلاد المجاورة للجزائر وبخاصة المغرب وتونس, هي الملجأ الأخير لزعماء الحركات المسلحة. ولذلك فإن الشيخ اضطر إلى الالتجاء إلى المغرب بعد ازدياد الضغوط الفرنسية عليه, واستقر في بلدة فكيك المغربية في مطلع القرن العشرين, ثم انتقل بعد ذلك إلى إقليم وجدة بعد تزايد الضغوط الفرنسية والمغربية عليه.

ورغم ابتعاد الشيخ عن المنطقة التي اندلعت فيها حركته إلا أنه لم يتخل عن مواجهة الفرنسيين وأعوانهم, ولكن بالطريقة والوسائل التي كانت متاحة له آنذاك. فمن موقعه في بلدة فكيك وضواحيها, والتي حل بها قادما من ملجئه الأول في دلدول, كان الشيخ يرسل السرايا هنا هناك, لمناوشة القوات الفرنسية وأتباعها من

القبائل الجزائرية. كما كان يثير القبائل الجزائرية والمغربية على السلطات الفرنسية ويمدها بالمعلومات المفيدة.

ومن بين المعارك الهامة التي شارك فيها رجاله, نجد معركة المنقار[1] التي وقعت في 30جويلية سنة 1900, والتي هاجمت فيها قبائل دوي منيع وأولاد جرير- حلفاء الشيخ- قافلة التموين الرابعة, العائدة من بلدة إيغلي في الجنوب, والتي كانت تحت قيادة الرائد بيشْمان, وقد انتهت المعركة بمقتل ستة عشر جنديا من قوات اللفيف الأجنبي[2] . وفي هذه السنة أيضا-1900- تمكن الفرنسيون من احتلال منطقة تاديكالت وقورارة, ووصلوا إلى تيميمون بعد خمسة أشهر من المعارك, أي بعد مغادرة الشيخ بوعمامة لدلدول بحوالي ست سنوات.[3]

الإجراءات الفرنسية لإحكام السيطرة على الجنوب الغربي:

حاولت السلطات الفرنسية في إطار سياستها الرامية إلى إيجاد نظام دقيق في الجنوب الجزائري, تقسيم هذه المنطقة إلى أربعة أقاليم عسكرية, كانت منطقة عين الصفراء إحدى هذه الأقاليم الأربعة, والتي تشمل كل المنطقة الجنوبية الغربية حتى تندوف وأدرار, وذلك لضمان استقلالية القيادة القادرة على الوقوف في وجه أوضاع غير متوقعة. لكن هذه القرارات لم تعط نتائجها المرجوة على الميدان, إذ تواصلت

1- تقع المنقار على بعد 27 كم من المرة, على الضفة اليسرى لواد زوزفانة, وإلى الشمال من بلدة تاغيت.

2 -Bernard Lugan :Histoire du Maroc, presses de l'imprimerie- camping Tournay, Belgique, 1922, p : 211 .

3 -Duvaux : Zouzfana, Guir, Saoura ,Bull, trim, soc, geo, arch, d' Oran Janvier à Mars1902.

مهاجمة المراكز والقوافل الفرنسية, واستمر الوضع المضطرب كما كان, مما أدى إلى أوضاع أمنية غير مستقرة.[1]

في هذه الفترة, وفي شهر ماي من سنة 1903 عينت الحكومة الفرنسية جونار حاكما عاما على الجزائر,[2] والذي وضع من أولويات عمله تهدئة الأوضاع في الجنوب الغربي, ولكن, وفي اليوم الموالي لوصوله إلى الجزائر تم اغتيال أحد أفراد اللفيف الأجنبي في هذه المنطقة, كما تم الاستيلاء على قافلة تموين فرنسية, وقتل خمسة وعشرون جنديا كانوا يحرسونها. ومن أجل التحقيق في الأمر ذهب جونار شخصيا إلى المكان نفسه, لكنه سقط في كمين نصب له في فج زناقة في 31ماي 1903, ولكنه لم يصب بأذى, وقد نجا الضابط فابي من الاختطاف من قبل فرسان من البْرابَر المغاربة.

فكان لابد للفرنسيين من العمل بجد لإيقاف هذه الاضطرابات الدائمة. وهكذا بدءوا الاستعداد للانتقام, وكان الوضع جاهزا يوم 8 جوان, وفي العاشر منه بدأ قصف قصر زناقة بفكيك, وبخاصة جزئه الشمالي الغربي والذي تم تدميره كليا. وفي 13 جوان انسحب الفرنسيون من المكان, وذلك انتقاما للكمين السابق الذكر, ولتأديب سكان زناقة الذين كانوا من أشد المعارضين للتعاون مع السلطات الفرنسية.

---

1 -jean charles humbert : la découverte du sahara en 1900. L. harmathan. Paris. Montréal 1960 p : 226.

2- أنظر: جونار: عمل قبل ذلك نائبا ثم وزيرا للاشغال العمومية في الحكومة الفرنسية.

وقد شارك في الدفاع عن البلدة عدة قبائل جاءت لمساندة أهل فكيك, منها قبائل بني قيل والعمور, إلى جانب ثمانين رجلا من أولاد جرير مجهزين ببنادق من عيار 86[1].

معركتا تاغيت والمنقار الثانية: في اليوم السادس عشر من شهر جوان سنة 1903 قامت مجموعة تتكون من 250 رجلا من قبائل البْرابر بهجوم مباغت على فرقة المهارز الصحراويين التابعين لفرقة توات (50رجلا) في نواحي حاسي غزال, وكان القتلى كثيرون. وفي منتصف شهر أوت 1903 تجمعت قوات ضخمة في بلدة بوذنيب المغربية, من رجال قبائل دوي منيع وأولاد جرير والشعامبة أنصار بوعمامة, وهاجمت واحة تاغيت, حيث كانت تتواجد حامية عسكرية تتكون من ثلاثمائة عسكري, منهم قناصة جزائريون وجنود الفيلق الإفريقي, بالإضافة إلى فرقة مخزن تاغيت. كل هؤلاء كانوا تحت قيادة النقيب سوسبييل رئيس ملحقة زوزفانة.

وفي اليوم الثامن عشر من الشهر نفسه حضر الملازم بوانتورييه قائد الكتيبة الصحراوية الثانية والعشرون لنجدة الحامية. وفي اليوم التاسع عشر وصلت نجدة فرنسية أخرى تتكون من عشرين فارسا من إيغلي لتقوية الدفاع الفرنسي. وبعد هجوم فرنسي كاسح في اليوم نفسه انسحب المهاجمون نحو الأراضي المغربية.

وقد كانت نتيجة المعركة حسبما جاء في رسالة قايد السفيسيفة إلى الجنرال حاكم قسمة عين الصفراء, والمؤرخة في الرابع من شهر سبتمبر سنة 1903, وذلك بناء على ما صرح به أهل بشار, خمسين قتيلا من بين المهاجمين وهم من أولاد جرير

1- ورد في إحدى الروايات أن الشيخ بوعمامة دعّم الفكيكيين بعدد من رجاله.

وأهل موغل وأهل عين الشعير ودوي منيع ومن أهل الأحمر ومن البْرابَر, أما عدد قتلى الفرنسيين الذين كانوا في موقف دفاعي فقد بلغ تسعة قتلى وواحد وعشرين جريحا.[1] ومما يؤكد مشاركة أنصار الشيخ بوعمامة في المعركة ودعمه لها, ما صرح به أحد الضباط الفرنسيين من أن بوعمامة ناشد زعيم تلك الحرْكة"[2] بأن يشغل الفرنسيين في الجنوب.[3]

كما نصبت كمائن للطوابير الفرنسية في المنقار بزوزفانة في الثاني من شهر سبتمبر 1903, وتكبد النقيب وُوشي خسائر هامة, حيث "قام حوالي مائتا فارس محارب بمهاجمة قافلة تموين يحرسها حوالي مائة رجل من فرقة اللفيف الأجنبي بالقرب من المنقار, وكانت المفاجأة كبيرة على الفرنسيين, تم فيها القضاء على عدد من الضباط وصف الضباط والجنود الفرنسيين في الصدمة الأولى. وقد توفي النقيب ووشي متأثرا بجراحه, أثناء نقله إلى بلدة تاغيت.

وتمكن جنديان من فرقة الصبايحية من النجاة, وقاما بطلب النجدة من مركز تاغيت, و جاء النقيب سوسبييل, لينقذ مجموعة من الجنود, وحمل معه خمسين جريحا.[4]

---

1 -Jaean. ch. Humbert.. p:228.

2- الحرْكة بسكون الراء هي قوة من الجند تقوم بغزوة أو مسيرة عسكرية والمشارك فيها يسمى حارك.

3 -Gaquiére : Berguent (Ras el ain) 1904-1905, Bull. soc. Geo. Arch d'Oran 1913, p :75.

4 - Michel carronges : Charles de Foucauld, édition du cerf, Paris -1954, p :233 et 234.

كما تعرضت قصور مساهلة ومطارفة وشروين وتيميمون بالجنوب لهجمات من قبل المحاربين المقاومين. الجنرال ليوتي حاكما عسكريا على "الجنوب الوهراني" (1903-1906) بعد تزايد الاضطرابات والهجمات على المراكز الفرنسية وعلى قوافلها العسكرية, سافر الحاكم العام جونار إلى باريس للفت نظر الحكومة الفرنسية إلى خطورة الوضع في الجزائر, فعينت, بعد إلحاح من جونار, الجنرال ليوتي سنة 1903, ذلك الضابط المحنك صاحب الخبرة العسكرية في الطونكين ومدغشقر, كقائد لملحقة عين الصفراء.

وهكذا اختير خصم مناوىء ذو شأن في شخص الجنرال ليوتي, تماما كما سبق أن اختير خصم للأمير عبد القادر في شخص الجنرال بيجو[1]. وأعطيت للجنرال ليوتي سلطات خاصة, بطلب منه, تحت رقابة الحاكم العام ووزارة الحرب مباشرة. وكانت "مهمته الرسمية هي إعادة الأمن على الحدود الغربية انطلاقا من البحر المتوسط حتى وادي الساورة, وإنقاذ الوضع في الجزائر,"[2] ومواجهة عدو يصعب الإمساك به, ويمارس نوعا من الحرب المباغتة, ويتحمل قساوة الظروف الطبيعية القاسية في الصحراء.

عمل الجنرال ليوتي, منذ توليه القيادة في الجنوب الغربي على إعداد قواته للحد من "خصم يمتاز بليونة وحركية تحيل الوضع غير محتمل في تلك الأراضي القاسية, التي يجتازها البدو, ويسمونها بلاد الخوف حينا , وبلاد السيف حينا آخر, وحيث الخطر

1- بوعلام بسايح, مقاومة بوعمامة من طوماسان إلى ليوتي, مقال بمناسبة انعقاد الملتقى الوطني الأول لمقاومة الشيخ بوعمامة, الجزائر, 14 و15 أوت 1999.

2 -Bernard Lugan, Histoire du Maroc... p :217.

مخيم في كل مكان وفي ظل كل صخرة وفي جوف كل كثيِّب..إن القبيلة هنا هي عبارة عن سَرية عسكرية. فالرابطة بين أفراد القبيلة تشبه تماما ذلك النظام العسكري الموجود بين جنودنا"[1]. ولهذا عمل ليوتي على التخفيف من تجهيزات فرقه العسكرية وغيّر من تكتيكها ليسهل عليه الإمساك بخصومه أو طردهم بعيدا عن قواعدهم, وحتى يثبت لهم أنه هو الأقوى.

ورغم ما قام به هذا الجنرال من إجراءات جديدة إلا أنه لم يتحكم جيدا في الوضع بـــ "الجنوب الوهراني"، وقد عبر عن انطباعاته بما يلي: "ما يزال بوعمامة هو العقبة الكبرى, وتتجه جهودي كلها إلى عزله ومحاصرته ووضعه تحت رحمتنا, فهل أفلح في ذلك كله؟ وإذا كنا قد أخفقنا في القبض عليه مدة اثنتين وعشرين سنة, فإني لا أزعم أني سأقضي عليه خلال ستة أشهر."

وفي الرابع من شهر نوفمبر من سنة 1903 كتب ليوتي من عين الصفراء مايلي: "يبدو أن بوعمامة هو الذي يجب أن نعزوَ إليه جميع همومنا وما نعانيه من مضايقات, فموقفه موقف واضح العداء منذ مدة طويلة. إننا واجدون أثره في كل مكان.. إنه يقف وراء كل الفتن والاضطرابات, ومن أجل التخلص منه يجب أن تتجه كل جهودي نحوه, وإذا ما سقط هو سقطت معه, تقريبا , كل المتاعب التي نعانيها على حدودنا في الجنوب الوهراني."[2]

1- Bénoist Méchin : Lyautey l'africain, claire fontaine,Lausanne 1966, p :64 et 65.

2 - Lyautey : Vers le Maroc, Lettres du sud Oranais 1903-1906, Librairie Armand colin, paris 1937, p :95.

وقد حاول ليوتي إبعاد بعض القبائل المغربية عن الوقوف مع الشيخ بوعمامة وإثارتها ضده, فاتصل بقبائل بني قيل ليتقرب منها ويجلبها إلى صف الفرنسيين, واستغل المجاعة التي وقعت في بلادها ليقوم بتجنيد أبنائها "مخزنا" في جيشه. وفي هذا المجال وصل عبد الرحمن اليوبي زعيم بني قيل إلى عين الصفراء سنة 1904 رفقة جماعة من قومه, ووقّع مع الجنرال وثيقة سلم, كما اتفق الجنرال دي جونشاي قائد دائرة المشرية مع عبد الرحمن اليوبي هذا على حرب بوعمامة, وقد طلب هذا الأخير دعم قبائل حميان له. وهكذا تعرض الشيخ بوعمامة لعدة هجمات من القايد عبد الرحمن من الشرق, ومن قبائل البرابر من الغرب.

وقد راسل الشيخ قبائل بني قيل يخبرها بأن عبد الرحمن قد باع نفسه لفرنسا, ودعاهم إلى الثورة على قائدهم, وهددهم بالغزو إن وافقوا عبد الرحمن على مخططه, وأخبرهم أنه أرسل ابنه سيد الطيب إلى سلطان المغرب مولاي امْحمد, الذي سينجده بقوات تحت زعامة عبد الملك بن الحاج عبد القادر, وأنه سيقضي على كل من يتعاون مع فرنسا.[1] ونتيجة لذلك تخلت أغلبية قبائل بني قيل عن زعيمها السابق عبد الرحمن اليوبي, لما كان للشيخ بوعمامة من مكانة محترمة لدى الكثير من القبائل الجزائرية والمغربية.

تحالف الشيخ مع الروقي (مولاي امْحمد): انتقل الشيخ إلى الشمال الشرقي المغربي بعد أن تلقى رسائل من السلطان مولاي عبد العزيز ومن وزيره للدفاع محمد الجباص, يطلبان منه مغادرة فكيك, ومما شجعه على الاتجاه هذه الوجهة, هو توصله

1 - -Noël : Document pour servir à l'histoire des Hamyan et de la région qu'ils occupent région qu'ils occupent actuellement, Bull. soc. Géo. Arch. D'Oran 1916.

برسالة الثائر الروقي/ بوحمارة, الذي يدعوه للوقوف معه في وجه من وضع مقدرات البلاد بيد الأجانب.

وهكذا انضم الشيخ إلى الروقي "بوحمارة", وهو يظنه مولاي امحمد, السلطان الحقيقي الذي سُلب منه حقه في الملك, خاصة وأن مولاي عبد العزيز كان قد خضع للنفوذ الأجنبي, والشيخ بوعمامة كان قد حارب في الجزائر الاستعمار الفرنسي ومن يتعاون معه, ولهذا فإنه لم يخرج عن مبدإه في مخاصمة كل من يتعاون مع النصارى أعداء الإسلام, خاصة إذا كان هذا الخصم معتد سالب لحق أخيه, وهكذا فقد اعتبر الشيخ ذلك التحالف مواصلة لرسالته التي بدأها في الجنوب الغربي الجزائري, أي محاربة الفرنسيين المعتدين ومحاربة أتباعهم من المسلمين.

ولهذا انتقل الشيخ بوعمامة في اتجاه منطقة وجدة, حيث مستقر الثائر "الروقي", وذلك على مراحل, ومعه زمالته التي تتكون من قبائل مختلفة تضم حوالي ألف خيمة[1]. وفي شهر ماي من سنة 1904 وصل إلى نواحي الواد الحي غربي الحدود الجزائرية بـــ20 كيلومتر بناحية وجدة, وانضمت إليه عدة قبائل مغربية. وقد خاض عدة معارك ضد القوات المغربية في إطار تحالفه مع الروقي, ولكنه لم يتخل عن " الجنوب الوهراني".

بوعمامة يهدد مصالح الفرنسيين: لقد كان من مصلحة الفرنسيين أن يبقى الوضع على حاله مترديا بالمغرب الأقصى, ولكن تواجد قوة جديدة وتناميها على حدودهم

1- عبد الوهاب بن منصور, المرجع السابق, ص:85.

الغربية شكل عنصرا جديدا في المعادلة الفرنسية, وبخاصة بعد انضمام الشيخ بوعمامة إلى قوة الثائر "الروقي".

كانت فرنسا تتخوف من معارضة الدول الكبرى فيما لو حاولت احتلال المغرب لوحدها, ولكن هاهي الفرصة قد سنحت لها, فالخطر جاثم على الحدود الغربية, إنه العذر الذي فكر فيه الجنرال ليوتي حاكم منطقة عين الصفراء, وهكذا بعث بطابور عسكري إلى بلدة راس العين (بركنت) في منتصف شهر جوان سنة 1904 لاحتلالها بقيادة العقيد هنري, دون استئذان من حكومته في باريس.

في هذه الأثناء راسل الشيخ بوعمامة السلطات الفرنسية في شهر ربيع الأول سنة 1322هـ/1904م يطلب منها السماح لقوافله بالتنقل بكل حرية وتوفير الأمن لها, ولكن يظهر أنه كان يريد ربح الوقت بعد أن أصبح مهددا من قبل قوات المخزن المغربية.[1] أما الحاكم العام الفرنسي في الجزائر فقد برر احتلال القوات الفرنسية لبلدة راس العين في تقريره المنشور بصحيفة الوقت "Le Temps" بتاريخ 8 ديسمبر 1904 جاء فيه ما يلي: " وصلت أخبار إلى الجنرال ليوتي في شهر جوان مفادها أن قوات بوعمامة, عدونا القديم, و"مدعي العرش" قد اجتمعا غير بعيد عن مدينة وجدة لتهديد القبائل المناصرة لنا, وهما يستعدان لاحتلال منطقة الحدود, وبخاصة راس العين, النقطة الهامة التي تتحكم في الطريقين الهامين (الواد الشارف والشط الغربي)."[2]

---

1 - Gaquiére : Berguent... p :76.

2 -Voinot (L) Les conséquences de la lutte du Makhzen et du Rogui à proximité de la frontière Algérienne (1903-1905) Bull. soc. Geo. Arch. D'Oran 1934.p :183.

وأوضح أن احتلال الفرنسيين لهذه النقطة يمنع بوعمامة من امتلاك نقطة استراتيجية من حيث يمكنه أن يهددهم بالخطر.

وإلى جانب ذلك قام الفرنسيون بإرسال قوات إلى الحدود الجزائرية المغربية في كل من "زوج بغال" و"ماغورة" و" العريشة", كل هذا لتأمين المناطق الحدودية من أي خرق لها يأتي من جانب بوعمامة وأعوانه.

وفي إطار محاربة الشيخ لأعوان الفرنسيين قامت مجموعة من قبائل الشعامبة التابعين لزمالته في العشرين من شهر ماي 1905 بمهاجمة عناصر من قبيلة المهاية واستولوا على مواشيها, وذلك بعد التجائها إلى دائرة العريشة للاحتماء بالفرنسيين.

وفي 27 ماي 1905 تعرضت قافلة محملة بالمواد الغذائية للنهب من قبل القبائل الموالية للمخزن المغربي, كانت قادمة من السواحلية, البلدية المختلطة لندرومة في اتجاهها إلى معسكر الشيخ بوعمامة, وكانت تتكون من أحد عشر بغلا يسوقها سبعة رجال.[1]

الجنوب الوهراني المضطرب:

إن المتتبع لرسائل وتقارير القادة الفرنسيين ولكتاباتهم المختلفة يلمس ذلك القلق الذي كان ينتابهم من الأحداث التي كانت تقع في الجنوب الغربي الجزائري خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين, والتي يعيدون أسبابها إلى الشيخ بوعمامة ورجاله, سواء خلال تواجده في دلدول أو فكيك أو وجدة. ولذلك دعوا حكومتهم إلى احتلال المناطق الإستراتيجية التي كان الشيخ يلتجئ إليها كفكيك

1 - Voinot. P :258.

وراس العين, وأوضحوا أن توطيد الأمن والاستقرار في الجنوب لا يمكن أن يتم إلا بإحدى الفكرتين: الاحتلال الواسع أو التخلص من بوعمامة أو هما معا.

وهذا يعني أن حركة الشيخ بوعمامة لم تتوقف عند سنة 1882 بل استمرت حية نشطة حتى احتلال مدينة وجدة من قبل الفرنسيين سنة 1907. فقد كانت هناك المناوشات والاشتباكات المنعزلة والكمائن والغارات المحدودة في المكان والزمان واعتراض القوافل العسكرية الذاهبة إلى الجنوب والعائدة منه, والانتقام من أعوان الفرنسيين بضربهم في مواقعهم وغنم أموالهم. ثم إن تعيين الجنرال ليوتي كقائد عسكري على إقليم عين الصفراء العسكري سنة1903, بإلحاح من الحاكم العام جونار, دليل واضح على توتر الأوضاع في المنطقة الجنوبية الغربية, وعدم تحكم القوات الفرنسية بزمام الأمور جيدا. وتؤكد رسائل ليوتي وتقاريره إلى رؤسائه وزملائه وأخته ذلك القلق الذي كان ينتاب السلطات الفرنسية بسبب تواجد الشيخ بوعمامة بالقرب من الحدود الجزائرية المغربية, ودعمه للغارات والكمائن الموجهة ضد الفرنسيين وأعوانهم في المنطقة.

ومن تلك الحوادث ما ذكره هذا الجنرال نفسه في بعض رسائله, من أن فرقة عسكرية خرجت من مخيم بوعمامة بالمغرب الأقصى في شهر ديسمبر سنة 1904, والتي دخلت التراب الجزائري في المنطقة الجنوبية الغربية, وهي تتكون من تسعين فارسا ومائة مهري, والتي خاضت إحدى معاركها ضد القوات الفرنسية بالقرب من مدينة بشار, فقدت فيها تسعة قتلى وعددا من الإبل والأغنام, وقتلت للفرنسيين ثلاثة جنود من فرقة الصبايحية (السبايس) واثنين من فرقة "القوم", كما هاجمت الفرقة نفسها دورية فرنسية في حاسي أوشان بزوزفانة في الثالث عشر من شهر ديسمبر, إلا

أنها تركت مجموعة من المهارى وبعض البنادق بعد انسحابها من المعركة. ثم هاجمت قافلة لأولاد زياد في منطقة متواجدة على الحدود الشمالية للعرق الغربي الكبير, وقد تم على اثر المعركة مقتل ثلاثة وثلاثين رجلا من رجال القافلة وجرح واحد وثلاثون آخر, كما تم غنم 461 بعيرا وحوالي ألف رأس من الأغنام.

وقد تم استنفار القوات الفرنسية في الجنوب والغرب على طريق عودة المجموعة إلى المغرب, كما جُندت بعض القبائل الموالية للفرنسيين إلى جانب القوات النظامية بهدف مطاردة هذه المجموعة. وقد تم اللحاق بها في جبل مزاريف في 24 ديسمبر 1904, ولكنها أفلتت من الفرنسيين. وبعد مطاردة صعبة وكثيفة تمكنت القوات الفرنسية من اللحاق بالمجموعة ثانية في قارة الضُّويفَة على مسافة 20 كيلومتر شمالي جرف التربة, وهي متموقعة في مكان حصين بالجبل في 31 ديسمبر 1904 تنتظر ظلام الليل للانسحاب نحو زاوية الشيخ في ناحية وجدة.

وقد عمل الرائد بيرون على مناوشة المجموعة وهي في موقعها, في انتظار وصول النجدات, لكن رجال بوعمامة تمكنوا من الانسحاب تحت جنح الظلام, وتركوا ستة قتلى وعددا من الأسلحة والبضائع وبعض الجمال تخفيفا للحمولة التي كانت تعرقل سيرهم, أما خسائر الفرنسيين فتمثلت في ثلاثة قتلى من رجال الصبايحية وواحد من فرقة الصحراء من بشار واثنين من المخازنية, وأحد عشر جريحا, كلهم من الأهالي, باستثناء صف ضابط فرنسي جريح برتبة رقيب أول.

وهكذا وبعد خمسة عشر يوما من المطاردة, ورغم ضخامة القوات الفرنسية, فإن المجموعة تمكنت من الانفلات والدخول إلى الزاوية في أمان, حيث أن قائد الجماعة الفرنسية المتحركة التابعة لحامية بركنت (راس العين) عَلِمَ في 10 جانفي

1905 أن بعضا ممن شارك في ذلك الغزو قد عاد إلى الزاوية في اليوم الخامس من شهر جانفي.[1] وفي رسالة لليوتي إلى الرائد مارغريت وأخرى إلى أخته يوم أول وثالث فيفري 1906 على التوالي, يقول: "لقد فاجأت فرقي في بركنت رجال بوعمامة وهزمتهم وأخذت منهم ألف بعير وغنمت أسلحتهم, إنه شيء رائع."[2]

وفي التاسع من شهر فيفري 1906 كتب ليوتي رسالة إلى الجنرال هيرسون من عين الصفراء يذكر له أن أخبارا وصلته في 27 جانفي الفارط مؤداها وجود قافلة من الإبل متجهة نحو الشمال, فتم إنذار كل فرق الحدود الغربية, وتم تعقب القافلة, ثم أحيط بها قبيل وصولها إلى الزاوية المتواجدة بنواحي وجدة, وحيل بينها وبين أحد الجبال الذي كان رجال بوعمامة يريدون التحصن به.

ووقعت القافلة بين يدي كماشة, وهي في أرض مستوية مكشوفة بواد نسلي مما اضطر رجالها وهم من الشعامبة إلى ترك غنيمتهم المتكونة من ستمائة بعير. وقد قتل منها اثنا عشر جملا, وأصيب ثلاثة بجروح, كما تركوا بعض البنادق في ميدان المعركة.[3]

لقد تفطن الفرنسيون إلى مصدر الاضطرابات الحاصلة في الجنوب الوهراني, وهو بوعمامة ومحيطه المتواجد في نواحي وجدة, لذلك رصد الفرنسيون الجواسيس من فرنسيين وأهالي يأتونهم بكل كبيرة وصغيرة.

---

1 - Lyautey :vers le Maroc...p 128 à 158.

2 - Lyautey, p :158.

3- عبد القادر خليفي، المأثور الشعبي لحركة الشيخ بوعمامة، أطروحة دكتوراه الدولة، جامعة وهران 2000-2001، ص: 209.

لذا فإن القافلة التي حاصروها في نقطة نسلي سنة 1906 مثلا, كانوا على علم بوقت خروجها من الزاوية منذ ثلاثة أشهر خلت, ولكنهم لم يتمكنوا من تتبعها. لقد كان رجالها أكثر مرونة وحركة من الفرنسيين ومن أعوانهم.

كان الشعامبة هم أهم من كان يقوم بهذه "الغزْوات" و"الحرْكات" لأنهم كانوا الأدرى بدروب الصحراء وفِجاجها, هذا ما لاحظه الضابط ليوتي نفسه, الذي يذكر في إحدى مراسلاته أن الشعامبة هم الأكثر وفاء لبوعمامة, وأنهم يعملون دون انقطاع, ويتنقلون بين الأهالي هنا وهناك, فهم الذين كانوا في المنقار سنة 1903 وفي حاسي أوشان سنة 1904 وهم الذين تمت محاصرتهم أخيرا سنة 1906, وتم قتل زعيمهم مسعود بن محمد, وهو من شعامبة ورقلة.[1]

ويضيف ليوتي أن "لصوص بوعمامة"- كما يسميهم- يأتون من الغرب ليثيروا الفتن والاضطرابات, وهم يتحركون من نقطة إلى أخرى ليحصلوا على الغنائم أو ليهاجموا نقطة غير متوقعة.

ويحذر رجاله وحكومته قائلا: "يجب تشديد المراقبة أكثر من أي وقت مضى, وانتظار هجمة مفاجئة من أي مكان, إن حدودنا واسعة تصعب مراقبتها".[2]

وفي سنة 1906 وصلت ليوتي أخبار مفادها أن باخرة ألمانية قد أفرغت كمية من الأسلحة والذخيرة في مدينة أغادير المغربية, وقد تم نقل كل ذلك إلى بلدة تافيلالت, حيث حصل سكانها على نصيبهم منها وسلموا الباقي لرجال بوعمامة.

---

1 - Lyautey, p :236-245.

2- أنظر المرجع نفسه, ص:246.

ثم إن ليوتي كان لايثق كثيرا في رجاله من جنود الصبايحية, لأنهم- كما يقول- يقومون بدفع "الزيارة" لبوعمامة[1]، أما أولاد سيد الشيخ المقيمين بالجزائر فإنهم لم يتوقفوا عن توثيق علاقتهم بالجهة الغربية, وهو يقصد بذلك زاوية الشيخ بوعمامة في المغرب الأقصى.

خـــــاتمـــة

هذه بعض الأحداث العسكرية التي تم رصدها في المنطقة الجنوبية الغربية من الجزائر في مطلع القرن العشرين, وفي العقد الأول منه بالذات, حين كان الشيخ بوعمامة متواجدا بالمغرب الأقصى, سواء كان ذلك بمنطقة فكيك أو وجدة. وهي ليست كل الأحداث, ولكنها تثبت بما لا شك فيه استمرارية مقاومة الشيخ بوعمامة وعدائه للسلطات الفرنسية في الجزائر, حتى بعد لجوئه إلى المغرب الأقصى.

فرغم استقرار زعيم مقاومة 1881 بالمغرب الأقصى وحصوله على تحالف واسع مع قبائل مغربية عديدة من جهة, ومع الثائر "الروقي", الذي كان يسيطر على المنطقة الشمالية الشرقية من المغرب من جهة أخرى, فإنه لم يوقف حربه ومقاومته للفرنسيين في الجزائر, بل واصل إرساله للمجموعات العسكرية "الحرّكات" إلى المنطقة الجنوبية الغربية التي يعرفها رجاله جيدا, بسهولها وجبالها, بودياها وهضابها, وأنه لم يترك الفرنسيين يهنئون بالراحة بما استولوا عليه في تلك الجهة, و لم يتوقف عن ذلك حتى بعد احتلالهم لبلدة راس العين في شهر جوان من سنة 1904 جنوبي وجدة.

1- هي الهدايا النقدية التي يهديها الأتباع.

قال أحد الضباط الفرنسيين الذي حل بالمنطقة في مطلع القرن العشرين عن الأوضاع المضطربة ما يلي: "لقد أصبح نومنا قليلا, عين واحدة مغمضة والمسدس في اليد." وأضاف: "عندما نكون مطمئنين في هذه المنطقة, آنذاك يجب تشديد الحراسة جيدا."[1]

لقد كان الشيخ بوعمامة يقود محاربين أشداء مؤمنين بهدفهم, يعرفون أنهم تحت قيادة زعيم صوفي لا تلين عريكته ولا تثنيه أية عقبة عن أداء واجبه في الجهاد والمقاومة. ولكن تقدم سن الشيخ وإصابته ببعض الأمراض في آخر أيامه, وتزامن ذلك وسيطرة الفرنسيين على مدينة وجدة, القريبة من موقعه في العيون, في مارس سنة 1907, هو الذي أنهى حركته المسلحة.

وعندما توفي في أكتوبر من سنة 1908 خلفه ابنه سيد الطيب على رأس الزاوية, والذي كان عليه ضمان سلامة أتباع والده, فغير الأسلوب الحربي الذي اتبعه والده, واختار أسلوب مهادنة السلطات الفرنسية التي احتلت بلدة عيون سيدي ملوك سنة 1910, التي كانت مقرا للزاوية الشيخية العمامية آنذاك, وقد نقل سيد الطيب مقر الزاوية, بعد وفاة والده, إلى ضواحي بلدة بني مطهر (راس العين سابقا ثم بركنت فيما بعد), حيث يتوارث أبناؤه مشيخة الطريقة إلى اليوم.

---

1 - Dans l extrême sud Oranais ; un poste dans le Bled, en escorte de convoi au Sahara, Manuscrit d'un officier anonyme, paris 1900-1901, 151pages, Archives de la wilaya d'Oran, cote n°B/182.